ارتباك النص: ملاحظات نقدية على ثلاث ومضات قصصية

عباس طمبل، السودان

د. جمال الجزيري، جامعة السويس، مصر

سنتناول في هذا المقال ثلاثة نصوص نُشرت في "ومضات أغسطس 2014"، وهو الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني التي تصدر عن مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك. وكنا نأمل بعد نشر هذه الومضات على المجموعة أولا أن يتم الحوار مع كُتاب هذه النصوص للوصول إلى الصيغة المثالية التي تتبناها المجموعة، وهي تأكيد نظرتها للومضة القصصية التي تنطلق من مفهوم أن نص الومضة القصصية يجب أن يحمل مقومات السرد القصصي، من عنوان محايد منفصل تمامًا عن النص بحيث يؤدي وظيفة العنوان المتعارف عليها في علم السرد، والمتن يجب أن يكون نصًا سرديًا يحمل كل مقومات البقاء ومكتمل البنية الجسدية ويُفهم بعيدًا عن عنوانه.

أولًا: نص بعنوان (ناقم) للأستاذ حسن الفياض.

قرأ كتابًا عن أمجاد العرب؛ طفِق يحفر قبرًا لأحفادهم.

أول ما يستوقف القارئ في هذا النص العنوان الذي وظفه الكاتب

بطريقة خاطئة، إذ يعتبر العنوان (ناقم) في هذه الومضة جزءًا لا يتجزأ من البنية الجسدية للنص، وهذا مخل بوظيفة العنوان إذا يقول "جيرار جينيت" إن الوظيفة الأساسية اللازمة للعنوان في النص الأدبي في المقام الأول هي وظيفة التسمية والتعيين التي تساعد القارئ علي امتلاك مفتاح الدخول إلى عالم النص، وينبغي على العنوان أن يغطّي جانبا من جوانب النص بأي شكل من الأشكال كأن يشير إلى جانب من جوانبه الشكلية أو يشير إلى جانب من الموضوع الذي يتناوله أو يرمز للحالة العامة التي يجسدها النص ويكون بمثابة المبدأ الرئيسي أو الفرعي الذي تقوم عليه التجربة المسرودة في النص بالنسبة للومضة هنا. وهنا نجد العنوان يقوم بوظيفة التسمية لأنه عنوان أولا وأخيرا، ويكننا عندما ننتقل للنص نجد أن هذا النص يقوم على العنوان كما سنبيّن لاحقا في هذه المقالة

من المشاكل التي يقع فيها الكثير من كُتاب الومضة القصصية، كتابة العنوان قبل كتابة نص الومضة ومن هنا يأتي الخلل، فمن المفترض أن تتم كتابة النص أولاً ثم يأتي بعد ذلك اختيار عنوان رمزي محايد حسب وظيفة العنوان في النص الأدبي، ولابد أن يكون النص مكتملا وتتحقق فيه جميع السمات النصية التي يتناولها جمال الجزيري في مقالة منفردة منشورة في هذا العدد من المجلة أيضا: التماسك، الترابط، الإخبار/الإبلاغ، الموقفية/ المقامية/

المقام/ مقتضى الحال، التناص، القصدية، القبول. وهذه سمات عامة لابد أن تتوفر في كل نص سواء أكان أدبيا أم لا. أما بالنسبة للنص القصصي، والومضة نص قصيي في الأساس، فلابد أن تتوفر فيه سمات أخري خاصة بالنوع الذي تنتمي إليه بالإضافة إلى هذه السمات النصية العامة. فلابد أن تكون أطراف الحدث معلومة في الومضة ولابد أن يكون الحدث مكتملا بحيث لا يحتاج القارئ إلى اللجوء إلى عامل خارجي لفهمه، ولابد أن يكون السرد هو السمة الأساسية للنص وليس مجرد أداه يستعين بها الكاتب لتوصيل فكرة، فالفكرة في النص السردي تنبع من الحدث ذاته ولابد أن يظهر لنا الراوي الحدث أمام أعيننا بطريقة مجسّدة بفتح اسين وكسرها تمكِّنُنا من أن نستشف فكرته أو أفكاره، لا أن يطرح الكاتب الفكرة بشكل مباشر.

ومضة "ناقم" لحسن الفيَّاض لا تلتزم بهذا المفهوم للنص بوجه عام ولنص الومضة بوجه خاص. فنظرا لتغييب عناصر مهمة من مقومات القص في ومضة "ناقم"، نجد أنفسنا هنا أمام نص لا نعرف الكثير من سماته ولا نعرف أطراف الحدث. ولا يقوم الكاتب بتجسيد الحدث أو عرضه أمامنا. من الذي قرأ أمجاد العرب؟ وعن أي أمجاد يتحدث الكاتب؟ في أي مجال من مجلات العلوم مثلًا، أم مجال الحراك السياسي والديني والثقافي أم في أي

مجال آخر؟ فلقد كانت أمجاد العرب كثيرة في كل المجالات ـ الطب والفلك والكيمياء والأدب والفلسفة ـ على سبيل المثال. ثم هل من المفترض أن تكون قراءة هذه الأمجاد بشكل عام مصدرَ فخر ومدعاة للتحفيز لاستعادتها أم مدعاة للانتقام من أحفاد العرب؟ ما يدعو هذا الفاعل الُمغيَّب في النص أن يحفر قبرا للأحفاد؟! هل هذا القبر هو قبر العار والخزي؟! كل هذه أسئلة تدور في ذهن المتلقي. هذا على مستوى النص بشكله الحالي، وهو شكل يدعو للتساؤل هنا: هل يوجد سرد هنا أم أن الكاتب ألح على الفكرة فقط؟ هل النص متماسك لغويا؟ نعم متماسك لغويا. هل النص مترابط؟ لا يوجد ترابط هنا لأن الفكرة التي يقوم عليها غير منطقية أو لا تنبع من موقف يمكننا أن نتبين ملامحه من السياق، فالشخصية الوحيدة التي تظهر في النص هي شخصية من قرأ ومن حفر. ما العلاقة المنطقية التي تجعل القراءة تؤدي إلى حفر القبل؟ ما السمات النفسية لهذه الشخصية؟ هل هي مجنونة مثلا بحيث تؤدي بها قراءة التاريخ الذي لا يخصها في الغالب إلى الانتقام من أحفاد شخصيات ذلك التاريخ؟ هل هي نظرية المؤامرة؟ هل هي هلوسة؟ الحدث لا يستقيم منطقيا، ولا توجد مبررات تقنعنا بمنطقية الحدث، لأننا أمام شخصية غير محددة السمات ولا يرسم الكاتب ملامحها أو يلقي الضوء على جانب منها يستطيع أن يقنعنا بمبررات سلوكها.

فعندما يكون النص السردي ناقصا من حيث السياق ودالة اللفظ لا تؤدي قراءته إلى معنى واضح ومفهوم، يقع المتلقي في فخ الافتراض والتخمين. ومنطيقًا القارئ ليس ساحرًا كي يدخل في ذهن أي كاتب ويعرف ماذا يريد إيصاله من رسائل تحملها نصوصه وما الهدف من كتابته لهذه النصوص؟

ثانيًا: نص بعنوان (فقير) للأستاذة فرات المدني.

توسدَ الجوع فراشاً، كتبَ على بابه: "أدعوكم لوليمة ".

هي نفس إشكالية نص (ناقم) وينطبق عليه القول بالضبط من حيث من هو الفاعل الذي توسد الجوع فراشًا؟ وهل توسُّده للجوع يجعله يدعو الناس لوليمة؟ لماذا دعاهم؟ هل هذه إشارة إلى عفة النفس لديه من أن يكون الجوع هو فراشه ورفيقه أم إشارة إلى بخل الأغنياء في إنقاذه من فقره وجوعه ومن هنا أراد أن يقدم نفسه وليمة لتتخم بطونهم؟ هل على سبيل إظهار قوة العزم وعزة النفس التي تجعل الفقراء لا يسالون الناس إلحافًا؟

الحدث لابد أن يحتوي على منطقه الخاص ومبررات قبوله لدى القارئ والاقتناع به والاندماج فيه. "توسد الجوع فراشا" عبارة استعارية تدل على أن فلانا جَاعَ. ما علاقة الإحساس بالجوع

والدعوة لوليمة. الشخصية غير معلومة في النص والشخصيات التي يخاطبها غير معلومة أيضا. هل "سيشمُّ القارئُ على ظهر يده" كما يقول التعبير المصري أم سيُنَجِّمُ أم سيسأل عرَّافا ليعرف المشار إليه هنا وهناك؟ ربما يقول قائل إن الفاعل في الجملة الأولى الاستعارية هو الفقير الوارد في العنوان. العنوان ليس جزءًا من النص، والنص لابد أن يمتلك كل العناصر الكافية لكونه نصا كما أشرنا أعلاه عند تناول ومضة الأستاذ حسن الفياض، بحيث يستطيع بهذه السمات والمقومان أن يكون قابلا للبقاء والتداول بين القراء بوصفه نصا لا يحتاج إلى وجود المؤلف بجانبه ليشرح لكل قارئ المقصود بهذه الإشارة أو تلك.

يُفترض أن الجملة الثانية من هذا النص تقيم علاقة تضاد مع الجملة الأولى، بمعنى أنها من المفترض أن تفصح عن ضمير المخاطب هنا حتى نعرف هوية هؤلاء الذين يخاطبهم الجائع بحيث يمكننا أن نقيس دلالة سلوكه وتعبيره بالمقارنة بهم. الهاء في "بابه" غير محددة وكذلك الكاف في "أدعوكم". وكيف يدعوهم الجائع لوليمة؟ هل هذه الدعوة مصيدة مثلا بحيث يدخلون – من هم؟ - من باب – باب بيته؟ باب خيمته على الرصيف؟ الومضة تتحدث عن افتراش الجوع فقط ولا تذكر مكانا يمكن أن يلعب دورا في فك شفرة النص – من "بابه" ويتوسدون الجوع مثله مثلا؟ أو يشفقون

عليه؟ أو يحسون بألمه؟ وماذا لو استجاب فقراء مثله لهذه الدعوة؟ أليس ما يقوم به في هذه الحالة يزيد ألم هؤلاء الفقراء؟ ماذا لو فهم مارٌّ هذه الدعوة فهما حرفيا وعندما لم يجد هناك وليمة قام بالتشاجر مع صاحب الدعوة مثلا وقَتَلَه؟

الجملة الأولى تقول إنه توسد الجوع فراشا، ومن المفترض أن تستثمر الجملة الثانية دلالات هذه الجملة الأولى وتبني عليها بحيث تقدم لنا حدثا له علاقة بالتوسد والفراش. توسُّده للجوع يدل على أنه نام على جوعه. والتوسُّد لا يكون فِراشًا وإنما يكون وسادة: توسَّد الوسادةَ، توسَّد ذراعيه، توسَّد قالبَ الطوبِ، توسَّد حذاءَه، الخ. وهذا التوسُّد هنا يعني نومه. كيف كتب على الباب الذي لا نعرف كَنْهَهُ؟ يُفترضُ أنه ينام جائعا. وحتى لو كان النوم لم يقربْه بعد، من المفترض أنه يكتب على الفراش الذي قلنا إنه ليست له علاقة بالتوسد أصلا. هل الفراش له باب؟ إذن هو متسوِّل في أغلب الأحيان: فرش على الأرض/الشارع/الرصيف فراشا ونام عليه كتب هذه العبارة لدعوة الناس للتصدق عليه. ما دلالة الوليمة هنا؟ أسئلة كثيرة تدور في أذهاننا لأن النص غير مكتمل وبه الكثير من الفجوات أو الثغرات أو مواطن الخلل التي تجعلنا لا نملك إلا التخمين في أفضل الأحوال أو إلى صرف النظر عن النص بالمرة.

ثالثا: نص بعنوان (مكايدة) للأستاذ عثمان عمر الشال

أظهرت انزعاجها و تذمّرها من تلك النّظرات، وذلك العواء، ولكن لا تنكري أنّك منتشيه بجمالك الذي سحر الرجال.

هذه الومضة افضل من الومضتين السابقتين من حيث استقلالية العنوان عن متن القصة، لكن بشكل عام أرى أن في هذه الومضة معضلة أخرى يقع فيها الكثيرون من كُتاب الومضة القصصية، إلا وهي تكثيف قصة قصيرة جدًا وحذف جمل منها حذفًا قد يكون عشوائيًا يؤدي في نهاية الأمر إلى إرباك القارئ، وقد يحدث خللًا واضح في استعمال الضمائر والتحول في الزمن السردي من الماضي إلى زمن آخر بطريقة غير متقنة. وهذه الومضة اقرب إلى القصة القصيرة جدًا لتعدد أحداثها، بحيث لا يحتمل نص الومضة نقل أكثر من حدث في متنها نظرًا لزمن الحدث القصير الذي يحتمله المدى الزمنى للنص. وتعدد هنا حدث ـ الانزعاج والتذمر ـ من نظرات الرجال لهذه المرأة التي بدأت مبتهجة بجمالها الفاتن وسعيدة باهتمام الرجال بجمالها، هل الحدث ينحصر في المكايدة بالجمال الفاتن وحده أم تداخلت الأحداث كالتذمر والانزعاج والعواء واستمتاعها بلحظات المعاكسة المستمرة كلما سارت في الطريق؟ هل تقبل الومضة كل هذه الأحداث؟

طبيعة الومضة القصصية تدل على أنها لا تحتمل التوسع في زمن الحدث أو تعدد الأحداث. ويجب أن يلتقط الراوي حدثا واحدا خاطفا من منظور محدد سوءا أكان المنظور خارجيًا أو داخليًا.
المفارقة تقوم علي تلك المرأة الجميلة رغم تذمرها لكنها تستمتع بالإطراء والمدح ومطاردة الرجل لها والتلذذ بنظرات الإعجاب في عيونهم وكل الرجال معجبون بجمالها الفاتن..

ومن الملاحظ هنا أن الضمير الذي يتم استعماله في السرد ليس متسقا طوال الومضة، فنصفها الأول منقول بضمير الغائب ويتكلم الراوي عن هذه المرأة كأنها تنتمي إلى عالم لا يشارك فيه هذا الراوي. ولكنه ينتقل في النصف الثاني إلى استعمال ضمير المخاطب وكأنها حاضرة أمامه ويخاطبها مباشرة، الأمر الذي ينم عن خلط يتعلق باستعمال ضمير السرد. فضمير الغائب يفترض عدم مشاركة الراوي في الحدث، وعليه أن ينقل هذا الحدث كما هو بدون تدخل سواء أكان هذا النقل خارجيا بتسليط الضوء على ما تفعله الشخصية أو الشخصيات المشاركة في الحدث أم داخليا بأن ينقل لنا هذا المحدث من منظور إحدى الشخصيات وكأنه يرى الحدث بعينيها. أما ضمير المتكلم والمخاطب فيفترضان مشاركة الراوي في الحدث مشاركة كلية أو جزئية، رئيسية أم ثانوية، أي أن الراوي يكون شخصية في العالم الذي تلتقط الومضة جزءا أو لحظة

منه. وهذه المشاركة تفرض وجودها على المنظور المستعمل في السرد. ولذلك لابد هنا من أن يكون الضمير المستعمل في سرد الحدث متسقا: إما أن يحافظ الراوي على ضمير الغائب طوال النص، وهنا سنفهم أن المنظور المستعمل في النصف الثاني من الومضة بداية من "ولكن" منظور داخلي ينقل من خلاله الراوي ما يدور في نفس الشخصية بعد أن أظهرت تذمرها. وبذلك ندرك أن ضمير الغائب طوال النص يدل على عدم مشاركة الراوي في الحدث. والاحتمال الثاني يتمثل في استعمال ضمير المخاطب طوال النص، وهنا يتحول النص إلى ما يشبه المسائلة من قِبل الراوي للمرأة، ولابد أنه يعرفها معرفة وثيقة تتيح له أن يخاطبها هكذا فيما يشبه المسائلة أو على الأقل العتاب. أما النص بشكله الحالي فيدل – بشكل افتراضي – على أن النص جزء مقتَطَع من نص طويل فيه تنوع في استعمال ضمائر السرد واكتفى الكاتب بجملة من هنا وجملة من هناك.

مراجع

حسن الفياض. "ثلاث ومضات". ومضات أغسطس 2014. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال

الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 47.

عمر عثمان الشال. "3 ومضات". ومضات أغسطس 2014. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 45.

فرات المدني. "فقير". ومضات أغسطس 2014. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 62.

obeikandl.com